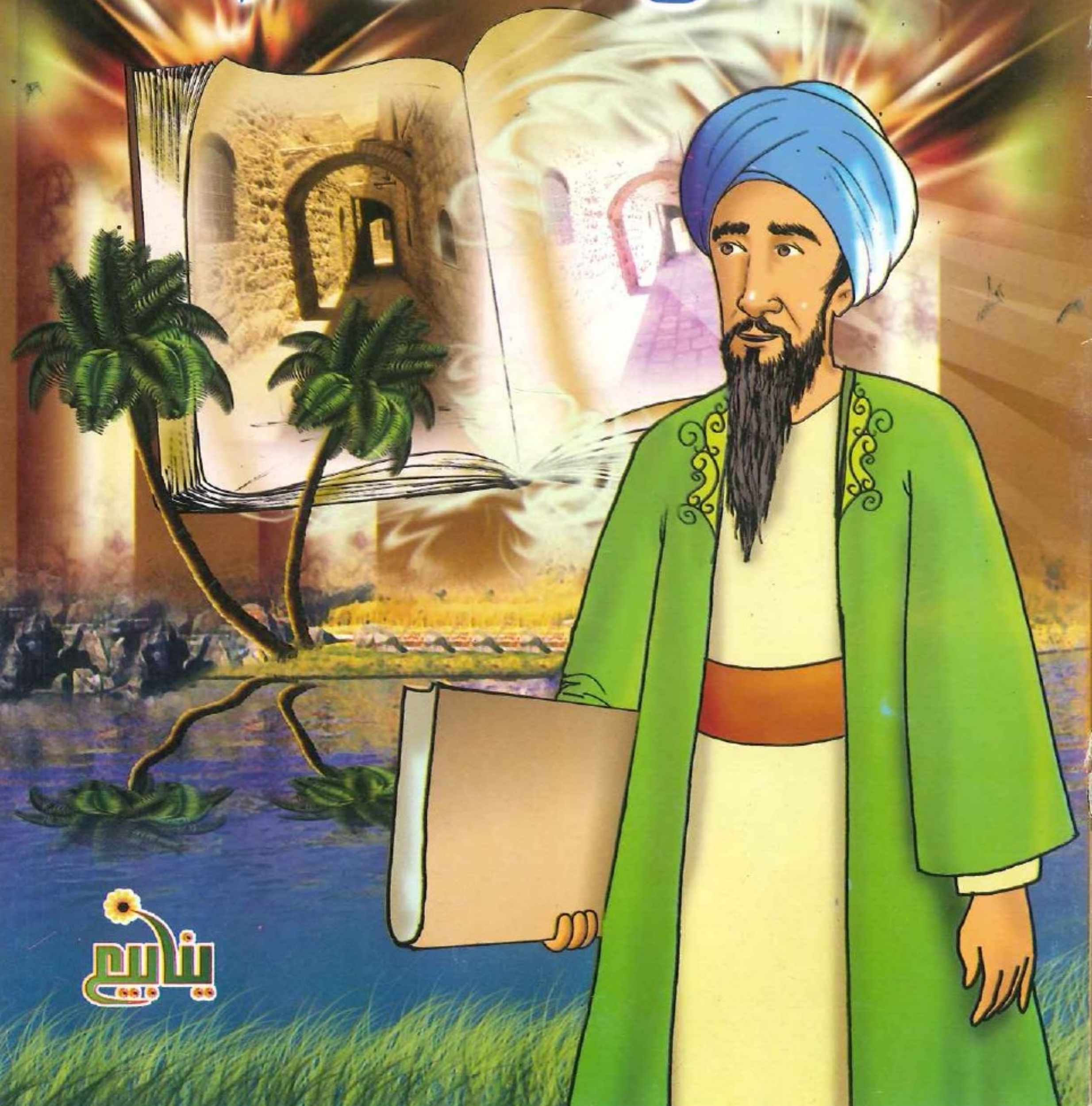
مسلمون علموا العالم

أمير النور

ابن الهيثم



سلسلة
مسلمون علموا العالم

ابن الهيثم

تأليف/ محمد المطارقي

رسوم / هشام حسين

جرافيك / عبير صبحي البحيري



المطارقي، محمد.
ابن الهيثم: أمير النور
تأليف / محمد المطارقي. ــ (الجيزة: ينابيع،
(2009 ..ص : ..سم . ــ (مسلمون علموا العالم)
١- قصص الأطفال.
٢- القصص العربية
٣- ابن الهيثم، محمد بن الحسن بن الهيثم،
٤- الرياضيات - تراجم
أ- العنوان: 11ش الطوبجي-الدقي-الجيزة
رقم الإيداع: 23193/2009



انْتَهي الْعَامُ الدِّرَاسِيُّ عَلَى خَيْرٍ.. كَانَ أَحْمَدُ وَحُسَامُ وَبَقِيَّةُ الأَصْدِقَاءِ يَشْعُرُونَ بِسَعَادَةٍ كَبِيرَةٍ؛ فَقَدْ حَصَلَ كُلٌّ مِنْهُمْ عَلَى دَرَجَةٍ كَبِيرَةٍ جِدًّا.. وَحَصَلَ أَحْمَدُ عَلَى شَهَادَةِ التَّفَوُّقِ مِنَ الدَّرَجَةِ الأُولَى.. كُلُّهُمْ سُعَدَاءُ.. هَاهُمْ يَسْتَقْبِلُونَ الأَجَازَةَ الصَّيْفِيَّةَ وَهُمْ فَرِحُونَ.

وَرَغْمَ أَنَّ الْمَوْسِمَ الدِّرَاسِيَّ قَدِ انْتَهَى كَمَا يَتَمَنَّوْنَ جَمِيعًا، وَجَاءَ وَقْتُ الرَّاحَةِ، إِلاَّ أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَشَوَّقُونَ لِلْقِرَاءَةِ وَالْمُطَالَعَةِ.. إِنَّهَا الْقِرَاءَةُ الْحُرَّةُ الَّتِي يَحْرِصُونَ عَلَيْهَا..

قَالُواْ جَمِيعًا: هَا نَحْنُ فِي انْتِظَارِكَ يَا أَحْمَدُ.. كَمْ نَشْتَاقُ إِلَى حَدِيثِكَ وَأَنْتَ تَحْكِي لَنَا حِكَايَاتٍ تَنْبُضُ بِالْحَيَاةِ!

قَالَ أَحْمَدُ: وَأَنَا أَيْضًا.. كَمْ أُحِبُّ هَذِهِ النَّمَاذِجَ الرَّائِعَةَ، وَأَتَمَنَّى أَنْ نَسِيرَ عَلَى نَفْسِ طَرِيقِهَا!

هَا هُمْ يَنْظُرُونَ إِلَى أَحْمَدَ بِتَرَقُّبٍ شَدِيدٍ، وَقَدْ حَبَسُواْ أَنْفَاسَهُمْ جَمِيعًا..

قالَ أَحْمَدُ: نَحْنُ الْيَوْمَ نَلْتَقي مَعَ نَجْمٍ مِنْ نُجُومِ الْعِلْمِ، ما يَزالُ اسْمُهُ يَتَرَدَّدُ في كُلِّ أَنْحاءِ الدُّنْيا، مَشْرِقِها وَمَغْرِبِها.. هُوَ ابْنٌ مِنْ أَبْناءِ الْعُرُوبَةِ وَالإِسْلامِ، وَأَحَدُ الْعِظامِ الَّذِينَ نَفْخَرُ بِهِمْ وَنَتَحَدَّثُ عَنْهُمْ بِكُلِّ تَقْدِيرٍ.. إِنَّهُ أَبُو عَلِيٍّ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ بْنُ الْهَيْثَمِ، أَشْهَرُ عُلَماءِ الْقَرْنِ الْحادي عَشَرَ لِلْمِيلادِ، وَأَعْظَمُ عُلَماءِ الطَّبِيعَةِ وَالْبَصْرِيّاتِ وَالرِّياضِيّاتِ، لُقِّبَ بِالْمُهَنْدِسِ الْبَصْرِيِّ، وُلِدَ سَنَةَ 965م بِالْبَصْرَةِ، وَتُوُفِّيَ سَنَةَ 1039م في الْقاهِرَةِ. لَمْ يَكَدِ الأَوْلادُ يَسْمَعُونَ اسْمَ الْعالِمِ الْكَبِيرِ حَتَّى صاحُوا وَهَلَّلُوا.. إِنَّنا نَسْمَعُ عَنْهُ كَثِيرًا.. إِنَّ الْمَدْرَسَةَ الَّتي نَذْهَبُ إِلَيْها تَحْمِلُ اسْمَ هَذا الْعالِمِ!



وَفي لَحَظاتٍ خاطِفَةٍ كانَ الْكِتابُ الَّذي يُمْسِكُهُ أَحْمَدُ قَدِ انْفَلَتَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، وَخَرَجَ مِنْهُ ضَوْءٌ ساطِعٌ، ثُمَّ راحَ يَدُورُ حَوْلَ نَفْسِهِ بِسُرْعَةٍ شَدِيدَةٍ، وَراحَتِ الصَّفَحاتُ تَتَقَلَّبُ!!

جَرَى الأَصْدِقاءُ نَحْوَ الْكِتابِ وَالابْتِسامَةُ تَرْتَسِمُ عَلَى وُجُوهِهِمْ، وَما هِيَ إِلاَّ لَحَظاتٌ قَلِيلَةٌ حَتَّى دَخَلُوا الْكِتابَ، وَقُلُوبُهُمْ تَكادُ تَرْقُصُ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ.

فِي دَاخِلِ الْكِتَابِ كَانَتْ رَائِحَةُ الْمَاضِي الْعَرِيقِ تَعُمُّ الشَّوَارِعَ وَالْبُيُوتَ؛ فَالْعَرَبَاتُ تَجُرُّهَا الْخُيُولُ، وَالنَّاسُ يَمْشُونَ هَادِئِينَ.. انْطَلَقَ أَحْمَدُ مُسْرِعًا وَالأَصْدِقَاءُ مِنْ خَلْفِهِ يَسْأَلُونَ: أَحْمَدُ، إِلَى أَيْنَ أَنْتَ ذَاهِبٌ؟ قَالَ أَحْمَدُ: نَحْنُ فِي طَرِيقِنَا إِلَى الْجَامِعِ الأَزْهَرِ. تَبَادَلَ الأَوْلَادُ نَظَرَاتِ الدَّهْشَةِ، وَقَالُوا: نَحْنُ نُرِيدُ مُقَابَلَةَ الْمُهَنْدِسِ الْبَصْرِيِّ الْحَسَنِ بْنِ الْهَيْثَمِ. ضَحِكَ أَحْمَدُ وَقَالَ: نَحْنُ فِي طَرِيقِنَا إِلَيْهِ.. لَا تَتَعَجَّلُوا.

وَهُنَاكَ بِجِوَارِ الْجَامِعِ الأَزْهَرِ كَانَ عَدَدٌ مِنَ الْخَطَّاطِينَ يَجْلِسُونَ، وَكُلٌّ مِنْهُمْ يُمْسِكُ بَعْضَ الأَوْرَاقِ وَيُخَطِّطُ فِيهَا بِالرِّيشَةِ.. أَشَارَ أَحْمَدُ مِنْ دَاخِلِ قُبَّةٍ مُجَاوِرَةٍ لِبَابِ الأَزْهَرِ نَحْوَ شَيْخٍ وَقُورٍ يَجْلِسُ، وَقَالَ: هَا هُوَ عَالِمُنَا الْكَبِيرُ.. اقْتَرَبَ الأَوْلَادُ فَإِذَا بِشَيْخٍ لَهُ لِحْيَةٌ كَثِيفَةٌ، وَالنُّورُ يَشِعُّ مِنْ وَجْهِهِ.



هَمَسَ أَحْمَدُ بِكُلِّ أَدَبٍ: مَعْذِرَةً سَيِّدِي.. هَلْ تَسْمَحُ لَنَا أَنْ نُسَلِّمَ عَلَيْكَ؟

ابْتَسَمَ عَالِمُ الْبَصَرِيَّاتِ الْكَبِيرُ، وَرَفَعَ رَأْسَهُ قَائِلًا: وَعَلَيْكُمُ السَّلَامُ وَالرَّحْمَةُ.. أَهْلًا بِكُمْ وَمَرْحَبًا.. كَيْفَ حَالُكُمْ؟



الْتَفَّ الأَوْلَادُ حَوْلَ الْعَالِمِ الْكَبِيرِ الْحَسَنِ بْنِ الْهَيْثَمِ، وَهُمْ يَتَأَمَّلُونَ وَجْهَهُ الْمُضِيءَ، وَعَيْنَيْهِ اللاَّمِعَتَيْنِ.

قَالَ أَحَدُهُمْ مُبْتَسِمًا: نَحْنُ سُعَدَاءُ جِدًّا لأَنَّنَا الْتَقَيْنَا بِكَ يَا سَيِّدِي.

هَزَّ ابْنُ الْهَيْثَمِ رَأْسَهُ وَقَالَ: أَسْعَدَكُمُ اللهُ دَائِمًا بِكُلِّ خَيْرٍ، وَلَكِنْ أَخْبِرُونِي أَوَّلاً: هَلْ أَنْتُمْ تَقْرَأُونَ؟ الْقِرَاءَةُ هِيَ الْحَيَاةُ.. أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟

قَالُوا جَمِيعًا: بَلَى يَا سَيِّدِي، نَحْنُ نُحِبُّ الْقِرَاءَةَ.. الْقِرَاءَةُ هِيَ الْهِوَايَةُ الأُولَى الَّتِي جَمَعَتْ بَيْنَنَا.

قَالَ أَحْمَدُ: كَمَا أَنَّنَا مِنَ الْمُتَفَوِّقِينَ فِي الْمَدْرَسَةِ، وَنَحْصُلُ دَائِمًا عَلَى مَرْتَبَةِ الشَّرَفِ.

قَالَ الْعَالِمُ بْنُ الْهَيْثَمِ: حَسَنًا، هَذَا مَا أَتَمَنَّاهُ دَائِمًا.. الْعِلْمُ هُوَ النُّورُ الَّذِي يُبَدِّدُ كُتَلَ الظَّلَامِ، ظَلَامَ الْجَهْلِ وَالْمَرَضِ وَالتَّخَلُّفِ.. أُمَّةٌ لَا تَقْرَأُ تُسَاوِي أُمَّةً ضَعِيفَةً هَزِيلَةً، لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُدَافِعَ عَنْ نَفْسِهَا، وَلَا تُدَافِعَ عَنْ مُقَدَّسَاتِهَا.. انْظُرُوا إِلَى التَّارِيخِ وَتَعَلَّمُوا الدُّرُوسَ وَالْعِبَرَ.

قَالَ أَحْمَدُ: سَيِّدي، يُسْعِدُني وَبِكُلِّ فَخْرٍ أَنْ أُخْبِرُكَ بِأَنَّ عُلَمَاءَ الْعَالَمِ قَدْ اسْتَفَادُوا مِنْ مُؤَلَّفَاتِكَ، وَبِالأَخَصِّ كِتَابَكَ الرَّائِعِ (الْبَصْرِيَّاتُ)، الَّذي يُعَدُّ الْكِتَابَ الأَوَّلَ لِكُلِّ الْمُهْتَمِّينَ بِالْكِتَابَةِ عَنِ الْبَصَرِيَّاتِ، كَمَا أَنَّ اكْتِشَافَكَ الْمُذْهِلَ لِلْعَدَسَةِ الْمُكَبِّرَةِ كَانَ السَّبَبُ الأَسَاسِيُّ لِوُجُودِهَا عَلَى أَرْضِ الْوَاقِعِ بَعْدَ اكْتِشَافِكَ لَهَا بِثَلاثَةِ قُرُونٍ فِي إِيطَالْيَا.



وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ لَكَ مُؤَلَّفَاتٍ فِي الْفَلَكِ يَزِيدُ عَدَدُهَا عَلَى أَرْبَعَةٍ وَعِشْرِينَ مُؤَلَّفًا، كَمَا بَرَعْتَ فِي الْفِيزْيَاءِ، وَلَكَ الْكَثِيرُ وَالْكَثِيرُ مِنَ الْمُؤَلَّفَاتِ الَّتِي شَمِلَتْ مُخْتَلَفَ أَنْوَاعِ الْعُلُومِ، وَأَهَمُّ هذه الْمُؤَلَّفَاتِ: كِتَابُ الْمَنَاظِرِ، كِتَابُ الْجَامِعِ فِي أُصُولِ الْحِسَابِ، كِتَابُ شَرْحِ أُصُولِ إِقْلِيدسْ فِي الْهَنْدَسَةِ وَالْعَدَدِ، كِتَابٌ فِي تَحْلِيلِ الْمَسَائِلِ الْهَنْدَسِيَّةِ، كِتَابٌ فِي الأَشْكَالِ الْهِلالِيَّةِ، مَقَالَةٌ فِي التَّحْلِيلِ وَالتَّرْكِيبِ، مَقَالَةٌ فِي الدَّوَائِرِ، مَقَالَةٌ فِي خَوَاصِّ الْمُثَلَّثِ، مَقَالَةٌ فِي الضَّوْءِ، مَقَالَتَانِ فِي الْمَرَايَا الْمُحْرِقَةِ، مَقَالَةٌ فِي الْحِسَابِ الْهِنْدِيِّ، مَسْأَلَةٌ فِي الْمِسَاحَةِ، كِتَابٌ فِي الْهَالَةِ وَقَوْسِ قُزَحَ، كِتَابُ صُورَةِ الْكُسُوفِ، كِتَابٌ فِي هَيْئَةِ الْعَالَمِ.. وَغَيْرُهَا كَثِيرٌ.



قَالَ أَحدُ الأَوْلَادِ مُنْدَهِشًا: وَلَكِنْ.. مَعْذِرَةً يَا سَيِّدِي، أَخْبِرْنَا كَيْفَ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكْتُبَ كُلَّ هَذِهِ الْكُتُبِ، وَتَصِلَ إِلَى هَذِهِ الْمَكَانَةِ الْعَالِيَةِ؟

هَزَّ الشَّيْخُ ابْنُ الْهَيْثَمِ رَأْسَهُ ثُمَّ قَالَ: هَذَا سُؤَالٌ طَيِّبٌ.. أَوَّلاً يَجِبُ عَلَيْكَ يَا بُنَيَّ أَنْ تُحَدِّدَ هَدَفَكَ جَيِّداً، وَحَبَّذَا لَوْ كَانَ ذَلِكَ مِنَ الآنَ؛ فَأَنْتُمْ لاَ تَزَالُونَ بَرَاعِمَ خَضْرَاءَ، وَغَدًا بِمَشِيئَةِ اللهِ تُصْبِحُونَ رِجَالاً أَقْوِيَاءَ.. أَقُولُ لَكُمْ: لاَ بُدَّ مِنْ تَحْدِيدِ الْهَدَفِ، ثُمَّ الْعَمَلِ عَلَى تَحْقِيقِهِ بِطَرِيقَةٍ صَحِيحَةٍ، أَنَا - كَمَا قَالُواْ عَنِّي - كُنْتُ شَدِيدَ الذَّكَاءِ، سَرِيعَ الْحِفْظِ، كَثِيرَ التَّفْكِيرِ.. أَضِفْ إِلَى كُلِّ ذَلِكَ - وَهُوَ الأَهَمُّ - أَنِّي كُنْتُ كَثِيرَ الْقِرَاءَةِ! فَقَدْ قَرَأْتُ كُتُبَ السَّابِقِينَ وَالْمُعَاصِرِينَ، وَاسْتَفَدْتُ كَثِيرًا مِنْ تَجَارِبِهِمْ، وَاسْتَطَعْتُ أَنْ أُصَحِّحَ أَخْطَاءَ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ الْبَارِزِينَ، أَمْثَالِ إِقْلِيدِسَ وَبَطْلَيْمُوسَ، وَهُمَا مِنَ الْقَامَاتِ الْكَبِيرَةِ فِي تَارِيخِ الْعُلُومِ، حَيْثُ قُمْتُ بِعَمَلِ تَجَارِبَ، وَتَوَصَّلْتُ إِلَى نَتَائِجَ أَثْبَتَتْ خَطَأَهُمَا فِي بَعْضِ نَظَرِيَّاتِهِمَا.. وَقَدْ نَجَحْتُ - بِفَضْلِ اللهِ تَعَالَى وَتَوْفِيقِهِ - فِي تَطْوِيرِ عِلْمِ الْبَصْرِيَّاتِ بِشَكْلٍ جِذْرِيٍّ.

قَالَ ابْنُ الْهَيْثَمِ:

وَقَرَأْتُ أَيْضًا بِتَمَعُّنٍ لِلْعُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ عَاصَرْتُهُمْ، فَقَدْ كَانَ عَصْرًا مُزْدَهِرًا بِالْعِلْمِ وَمُخْتَلِفِ أَلْوَانِ الْمَعْرِفَةِ، بِهِ عُلَمَاءُ كِبَارٌ أَبْهَرُوا الْعَالَمَ بِأَعْمَالِهِمْ وَاكْتِشَافَاتِهِمْ.

وَأَنَا هُنَا أَعْتَرِفُ بِفَضْلِ الْعَالِمِ الأَنْدَلُسِيِّ الْعَظِيمِ الزَّهْرَاوِيِّ، الَّذِي اسْتَفَدْتُ كَثِيرًا مِنْ مَنْهَجِهِ وَاسْتَكْمَلْتُ مَسِيرَتَهُ فِي عِلْمِ الضَّوْءِ.

وَأَنَا أَقُولُ لَكُمْ أَيُّهَا الأَصْدِقَاءُ: كُلَّمَا ارْتَقَيْتُمْ فِي سُلَّمِ الْعِلْمِ لاَ بُدَّ أَنْ يَأْخُذَكُمُ التَّوَاضُعُ، وَأَنْ تَكُونُوا أُمَنَاءَ تَنْسِبُونَ الْفَضْلَ لأَهْلِهِ، مُخْلِصِينَ فِي أَدَاءِ رِسَالَتِكُمْ؛ لأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ سَوْفَ يَسْأَلُكُمْ عَنْ هَذَا الْعِلْمِ: مَاذَا عَمِلْتُمْ بِهِ؟ هَلْ جَعَلْتُمْ عِلْمَكُمْ مِنْ أَجْلِ الْخَيْرِ وَنَشْرِ الْمَحَبَّةِ وَالسَّلاَمِ بَيْنَ الْبَشَرِ؟

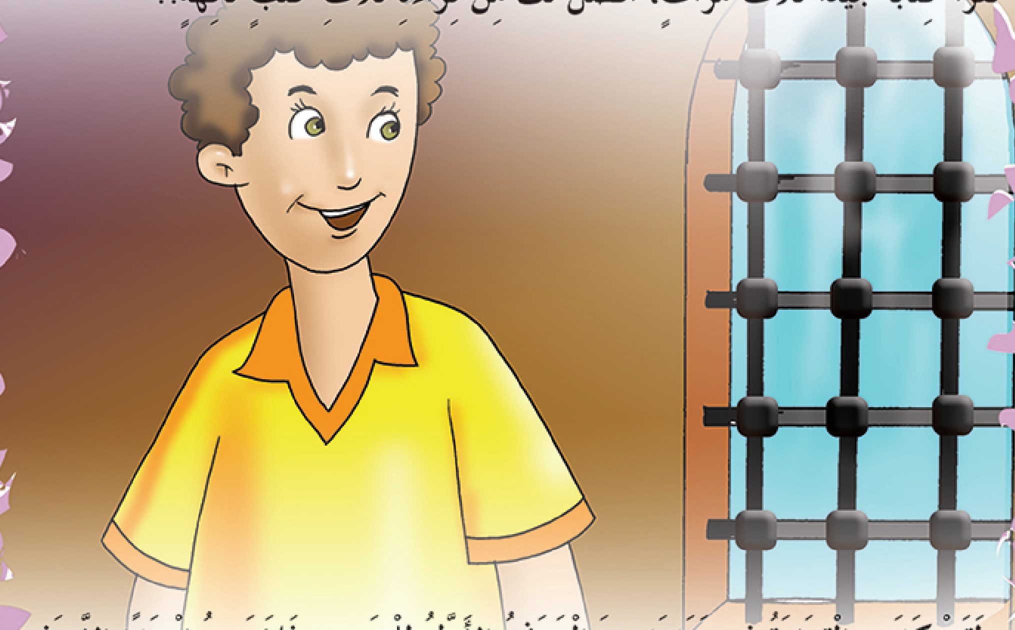


أَمْ أَنَّكُمْ هَدَفْتُمْ إِلَى تَخْرِيبِ الْعَالَمِ وَنَشْرِ الدَّمَارِ؟ يَا لَلْرَوْعَةِ إِذَا كُنْتُمْ مِنْ هَؤُلاَءِ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ يُحِبُّهُمُ اللهُ تَعَالَى وَيَقُولُ فِيهِمْ: "يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ".

مِنَ الأُمُورِ الْمُهِمَّةِ أَيْضًا لِكَيْ تُحَقِّقُواْ ذَاتَكُمْ: تَنْظِيمُ الْوَقْتِ.. فَلاَ تُضَيِّعُواْ وَقْتَكُمْ فِي أُمُورٍ تَافِهَةٍ، لاَ مَانِعَ مِنَ التَّرْفِيهِ وَاللَّعِبِ أَحْيَانًا، وَلَكِنْ لَيْسَ دَائِمًا.. وَحَافِظُواْ عَلَى دِينِكُمْ؛ فَهُوَ أَعْظَمُ نِعْمَةٍ مَنَحَهَا اللهُ لَكُمْ، وَاجْعَلُوا الدِّينَ حِصْنَكُمُ الْحَصِينَ.. فَلاَ بَارَكَ اللهُ فِي عِلْمٍ يُبْعِدُنَا عَنْ طَاعَةِ اللهِ.

قَالَ أَحَدُ الأَصْدِقَاءِ: سَيِّدِي، إِنَّ لِي كَرَّاسَةً خَاصَّةً أُسَجِّلُ فِيهَا الْمَعْلُومَاتِ الْقَيِّمَةَ الَّتِي أَقْرَأُهَا.

قَالَ الْعَالِمُ الْجَلِيلُ الْحَسَنُ بْنُ الْهَيْثَمِ: أَحْسَنْتَ يَا وَلَدِي، أَتْبِعِ الْقِرَاءَةَ بِالْعَمَلِ؛ فَإِنَّكَ إِنْ عَمِلْتَ بِمَا قَرَأْتَ فَذَلِكَ يُسَاعِدُكَ عَلَى مُوَاصَلَةِ الْبَحْثِ وَالْقِرَاءَةِ مُسْتَقْبَلاً.. وَلإِنْ تَقْرَأَ كِتَابًا جَيِّدًا ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، أَفْضَلُ لَكَ مِنْ قِرَاءَةِ ثَلاَثِ كُتُبٍ تَافِهَةٍ..



لَقَدْ كَانَتِ الْقِرَاءَةُ فِي زَمَانِنَا هِيَ الْهَدَفُ الأَوَّلُ لِلْجَمِيعِ، فَلاَ تَجِدُ إِنْسَانًا إِلاَّ وَفِي يَدِهِ صَحِيفَةً يَقْرَأُهَا أَوْ مَخْطُوطًا يَتَأَمَّلُهُ، أَوْ عَالِمًا يَلْتَفُّونَ حَوْلَهُ يَتَعَلَّمُونَ مِنْهُ.. لِذَلِكَ كَانَ الْمُسْلِمُونَ أَسْيَادَ الْعَالَمِ، وَكَانُواْ أَكْثَرَ الأُمَمِ تَقَدُّمًا وَتَحَضُّرًا..

لَيْتَكُمْ تَسْتَعِيدُونَ أَمْجَادَ الأَجْدَادِ بِحُبِّكُمْ لِلْعِلْمِ وَإِصْرَارِكُمْ عَلَى الْمَعْرِفَةِ.. وَلَيْسَ هَذَا بِصَعْبٍ وَلاَ مُحَالٍ.

قَالَ أَحْمَدُ: سَيِّدي: سَمعْنَا عَنْ حكَايَة مُثيرة حدَثَت بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْحَاكِم بِأَمْرِ الله الْخَلِيفَةِ الْفَاطِمِيِّ، وَهِي سَبَبُ مَجِيئِكَ إِلَى مِصْرَ.. هَلاَّ حَدَّثْتَنَا عَنْهَا؟



ضَحِكَ ابْنُ الْهَيْثَمِ كَثِيرًا ثُمَّ قَالَ: بَارَكَ اللهُ فِيكُمْ يَا أَحْبَابِي.. لَقَدْ كُنْتُ بِالْبَصْرَة وَكَانَتْ شُهْرَتِي الْعِلْمِيَّة قَدْ بَلَغَتْ أَقَاصِي الْبِلاَدِ وَمِنْهَا مِصْرَ، وَفِي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ قُلْتُ بَيْنَ عَدَد مِنَ التَّلاَمِيذِ: "لَوْ كُنْتُ بِمِصْرَ لَعَمِلْتُ بِنِيلِهَا عَمَلاً يَحْصُلُ النَّفْعُ فِي كُلِّ حَالَة مِنْ حَالاَته مِنْ زِيَادَة وَنُقْصَان"، فَوَصَلَ قَوْلِي هَذَا إِلَى الْحَاكِمِ بِأَمْرِ اللهِ الْفَاطِمِيِّ، فَأَرْسَلَ إِلَيَّ أَمْوَالاً كَثِيرَةً، وَدَعَانِي إِلَى مِصْرَ لأُحَقِّقَ لَهُ هَذِهِ الأُمْنِيَةَ.. فَقَدْ كَانَ النِّيلُ يَفِيضُ كُلَّ عَامٍ وَيُغْرِقُ الْبِلاَدَ.

فَاسْتَجَبْتُ لِطَلَبِه وَذَهَبْتُ إِلَيْه، فَقَالَ لِي: يَا حَسَنُ، أَنْتَ عَالِمٌ كَبِيرٌ، وَنَحْنُ نَثِقُ بِكَ، وَقَدْ وَصَلَتْنِي مَقُولَتُكَ الَّتِي تَخُصُّ فَيَضَانَ النِّيلِ، فَإِذَا اسْتَطَعْتَ أَنْ تُحَقِّقَ ذَلِكَ جَعَلْتُكَ مِنْ خَاصَّتِي، وَأَعْطَيْتُكَ مَالاً كَثِيرًا.

سَأَلَ الأَصْدقَاءِ وَهُمْ مُتَشوِّقُونَ: وَمَاذَا أجبتَ الحَاكِمَ بأَمْرِ اللهِ؟
قَالَ الْعَالِمُ ابنُ الْهَيْثَمِ: قُلْتُ لَهُ: أَمْرِكَ يَا سَيِّدِي. وَحَمَلْتُ أَدَوَاتِي الْعِلْمِيَّةِ وَاتَّجَهْتُ نَحْوَ النِّيلِ أَبْحَثُهُ وَأَدْرُس مَنَابِعَهُ، حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى أَسْوَانَ، وَرَأَيْتُ الْمِيَاهَ تَنْحَدِرُ بِقُوَّةٍ، وَهُنَا شَعَرْتُ بِالْحِيرَةِ وَالْعَجْزِ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي: أَنْتَ وَاهِمٌ يَا حَسَنُ! كَيْفَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصْنَعَ شَيْئًا أَمَامَ هَذِهِ الْقُوَّةِ الْهَائِلَةِ مِنَ الْمِيَاهِ الْمُتَدَفِّقَةِ؟ فَعُدْتُ إِلَى الْخَلِيفَةِ وَأَنَا أَشْعُرُ بِالْخَجَلِ الشَّدِيدِ لأَنَّنِي لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أُحَقِّقَ لَهُ أُمْنِيَّتَهُ الْغَالِيَةَ.. عُدْتُ إِلَى الْخَلِيفَةِ الْفَاطِمِيِّ وَأَنَا أَشْعُرُ بِالْقَلَقِ وَالْخَوْفِ.
قَالَ أَحَدُ الأَصْدِقَاءِ: وَلِمَ الْخَوْفُ يَا سَيِّدِي؟! أَيُّ إِنْسَانٍ مُعَرَّضٌ لِذَلِكَ!



قَالَ ابنُ الْهَيْثَمِ: أَنْتُمْ رُبَّمَا لاَ تَعْرِفُونَ الْحَاكِمَ بِأَمْرِ اللهِ، لَقَدْ كَانَ أَحَدَ الْجَبَابِرَةِ الطُّغَاةِ، كَثِيرَ الْقَتْلِ فِي النَّاسِ.. وَأَنَا رَجُلٌ بَسِيطٌ، كُلُّ مَا أَمْلِكُهُ هُوَ عِلْمِي الَّذِي أَحْمِلُهُ. إِنَّ أَحَدَ الْحَاقِدِينَ مِمَّنْ يَكْرَهُونَ الْعِلْمَ وَالْعُلَمَاءَ، ظَنَّ أَنَّ نَجَاحِي فِي تِلْكَ الْمُهِمَّةِ سَيَرْفَعُ شَأْنِي عِنْدَ الْحَاكِمِ وَأُصْبِحُ وَزِيرًا، فَذَهَبَ مِنْ فَوْرِهِ إِلَى الْحَاكِمِ وَقَالَ لَهُ: إِنَّ الْحَسَنَ بْنَ الْهَيْثَمِ يَسْخَرُ مِنْكَ، وَيَطْمَعُ فِي أَمْوَالِكَ فَقَطْ!
وَهُنَا عَلِمْتُ أَنَّ الْحَاكِمَ لَنْ يَهْدَأَ حَتَّى يَقْطَعَ رَقَبَتِي بِالسَّيْفِ، فَتَظَاهَرْتُ بِالْجُنُونِ، وَأَخَذْتُ أَفْعَلُ أَفْعَالَ الْمَجَانِينِ!!

قَالَ الأَصْدِقَاءُ: وَمَاذَا فَعَلَ الْخَلِيفَةُ الْفَاطِمِيُّ.. هَلْ صَدَّقَكَ؟

ابْتَسَمَ الْعَالِمُ الْكَبِيرُ ابنُ الْهَيْثَمِ وَقَالَ: نَعَمْ، صَدَّقَنِي وَتَرَكَنِي بَعْدَ أَنْ جَرَّدَنِي مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، فَمَكَثْتُ فَتْرَةً عَلَى تِلْكَ الْحَالِ حَتَّى مَاتَ الْخَلِيفَةُ الْفَاطِمِيُّ، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى حَيَاتِي الْعَادِيَّة، وَاخْتَرْتُ حُجْرَةً مُلاَصِقَةً لِبَابِ الْجَامِعِ الأَزْهَر، وَأَخَذْتُ أَسْتَرْجِعُ كُتُبِي وَمُؤَلَّفَاتِي مَرَّةً أُخْرَى، وَاسْتَطَعْتُ – بِفَضْلِ اللهِ تَعَالَى – أَنْ أُحَقِّقَ إِنْجَازَاتٍ عَظِيمَةً فِي مَجَالاَتِ الْعُلُومِ الْمُخْتَلِفَة، وَبِالأَخَصِّ الْبَصَرِيَّات وَالضَّوْء، وَحَقَّقْتُ شُهْرَةً عَظِيمَةً بَلَغَت الآفَاق، وَصَارَ الْعُلَمَاءُ وَطُلاَّبُ الْعِلْمِ يَأْتُونَ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ مَكَان.

ابْتَسَمَ أَحْمَدُ وَقَالَ: يَسُرُّنِي كَثِيرًا يَا سَيِّدِي أَنْ أُخْبِرَكَ أَنَّ نَظَرِيَّتَكَ الْقَدِيمَةَ بِخُصُوصِ النِّيلِ قَدْ تَمَّتْ، وَتَمَّ إِنْشَاءُ سَدٍّ عَظِيمٍ يُسَمَّى: "السَّدُّ الْعَالِي" فِي نَفْسِ الْمَكَانِ الَّذِي ذَهَبْتَ أَنْتَ إِلَيْهِ بِأَسْوَانَ!



ابْتَسَمَ ابنُ الْهَيْثَمِ قَائِلاً: رُبَّمَا فِي عَصْرِكُمْ آلاَتٌ وَأَجْهِزَةٌ بِوُسْعِهَا أَنْ تُحَقِّقَ إِنْجَازَاتٍ ضَخْمَة، لَمْ نَسْتَطِعْ نَحْنُ فِي عَصْرِنَا أَنْ نُحَقِّقَهَا.

قَالَ أَحْمَدُ: لاَ يَمْنَعُ هَذَا أَنَّكَ أَوَّلُ مَنْ بَادَرَ بِالْفِكْرَة وَحَاوَلْتَ تَحْقِيقَهَا.. لَكِنَّ ظُرُوفَ عَصْرِكَ هِيَ الَّتِي مَنَعَتْكَ مِنْ تَحْقِيقِ هَذَا الْحُلْم.

قَالَ ابْنُ الْهَيْثَم: صَدَقْتَ يَا وَلَدِي.

وَبَيْنَمَا الأَوْلَادُ يَتَحَدَّثُونَ إِلَى ابْنِ الْهَيْثَمِ إِذَا بِهِمْ يَسْمَعُونَ ضَجَّةً عَالِيَةً.. الْتَفَتَ أَحْمَدُ وَأَصْدِقَاؤُهُ فَإِذَا بِمَجْمُوعَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ يَتَحَرَّكُونَ نَحْوَهُمْ، وَالابْتِسَامَاتُ الْمُضِيئَةُ تَرْتَسِمُ عَلَى وُجُوهِهِمْ، وَهُمْ يُشِيرُونَ نَحْوَ ابْنِ الْهَيْثَمِ قَائِلِينَ:



هَا هُوَ أَمِيرُ النُّورِ، هَا هُوَ عَالِمُ الْبَصَرِيَّاتِ الْكَبِيرِ.. ثُمَّ اقْتَرَبُوا مِنْهُ أَكْثَرَ، وَرَاحَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يُصَافِحُهُ وَيُسَلِّمُ عَلَيْهِ، بَلِ الأَغْرَبُ وَالأَعْجَبُ أَنَّ بَعْضَهُمْ قَامَ بِتَقْبِيلِ رَأْسِهِ وَيَدِهِ اعْتِرَافًا بِفَضْلِهِ.

نَظَرَ أَحْمَدُ وَأَصْدِقَاؤُهُ إِلَى تِلْكَ الْكَوْكَبَةِ مِنَ الْعُلَمَاءِ فَوَجَدُوا مِنْهُمْ عُلَمَاءَ مُسْلِمِينَ مِنَ الرُّوَّادِ الأَوَائِلِ، وَآخَرِينَ مُعَاصِرِينَ، بَلْ وَفِيهِمْ عُلَمَاءُ غَيْرُ مُسْلِمِينَ!! الْكُلُّ جَاءَ يَشْهَدُ بِفَضْلِ الْحَسَنِ بْنِ الْهَيْثَمِ، وَيَعْتَرِفُ بِنُبْلِهِ وَمَكَانَتِهِ، وَزُهْدِهِ؛ لأَنَّ ابْنَ الْهَيْثَمِ كَانَ زَاهِدًا فِي الْمَالِ (أَيْ قَلِيلَ الاهْتِمَامِ بِهِ) رَغْمَ شُهْرَتِهِ وَكَثْرَةِ مُؤَلَّفَاتِهِ.

هَمَسَ أَحْمَدُ في أُذُنِ أَصْدِقَائِه قَائِلاً: يَا لَهَا مِنْ فُرْصَةٍ ذَهَبِيَّةٍ لِوُجُودِ هَذَا الْعَدَدِ الْكَبِيرِ مِنَ الْعُلَمَاءِ! سَأَقْتَرِبُ مِنْ بَعْضِهِمْ وَأَسْتَمِعُ إِلَى شَهَادَاتِهِمْ عَنْ عَالِمِنَا ابنِ الْهَيْثَمِ.

قَالُواْ جَمِيعًا: نَعَمْ، نَعَمْ.. إِنَّهَا فُرْصَةٌ عَظِيمَةٌ يَا أَحْمَدُ.

قَالَ أَحْمَدُ: هَذَا ابْنُ خَلْدُونَ رَائِدُ عِلْمِ الاجْتِمَاعِ.. إِنَّهُ يَقُولُ: "الْحَسَنُ بْنُ الْهَيْثَمِ هُوَ أَشْهَرُ الْعُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ كَتَبُواْ فِي عِلْمِ الضَّوْءِ، وَلاَ نَنْسَى أَنَّهُ وَصَفَ الْعَيْنَ وَصْفًا دَقِيقًا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِوَظِيفَتِهَا فِي الإِبْصَارِ"!



انْتَقَلَ أَحْمَدُ إِلَى أَشْهَرِ عُلَمَاءِ الْغَرْبِ الَّذِينَ كَتَبُواْ عَنِ ابْنِ الْهَيْثَمِ وَغَيْرِهِ مِنْ عُظَمَاءِ الْعَالَمِ، إِنَّهُ جُورْجْ سَارْطُونْ، فَوَجَدَهُ يَقُولُ: "إِنَّ ابْنَ الْهَيْثَمِ هُوَ أَعْظَمُ عُلَمَاءِ الطَّبِيعَةِ فِي الْقُرُونِ الْوُسْطَى، إِضَافَةً إِلَى ضُلُوعِهِ فِي الطِّبِّ، حَيْثُ أَلَّفَ كِتَابَيْنِ، وَفِي الْفَلْسَفَةِ لَهُ أَكْثَرُ مِنْ أَرْبَعِينَ كِتَابًا، وَلَهُ فِي الرِّيَاضِيَّاتِ أَحَدَ عَشَرَ كِتَابًا، وَلَهُ فِي الْهَنْدَسَةِ أَكْثَرُ مِنْ ثَمَانِيَةٍ وَخَمْسِينَ مُؤَلَّفًا".

نَظَرَ أَحْمَدُ فَإِذَا بِالدُّكْتُورِ مُصْطَفَى نَظِيف، أَحَدُ الْعُلَمَاءِ الْمُعَاصِرِينَ فِي الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ، يَقُولُ: "إِنَّ الْحَسَنَ بْنَ الْهَيْثَمِ يُعَدُّ بِحَقٍّ رَائِدَ عِلْمِ الضَّوْءِ فِي بِدَايَةِ الْقَرْنِ الْحَادِي عَشَرَ"!

وَتَوَالَتِ الإِشَادَةُ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِ الْمُسْلِمِينَ بِالْعَالِمِ ابْنِ الْهَيْثَمِ.. وَمَا هِيَ إِلاَّ سُوَيْعَاتٌ حَتَّى انْصَرَفَ الْجَمِيعُ وَعَادَ الْهُدُوءُ كَمَا كَانَ.

صَافَحَ أَحْمَدُ الْعَالِمَ الْهَنْدَسِيَّ الْكَبِيرَ، الْمُلَقَّبَ بِأَمِيرِ النُّورِ، الْحَسَنَ بْنَ الْهَيْثَمِ، وَقَبَّلَ رَأْسَهُ قَائِلاً: أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ يَا سَيِّدِي، فَقَدْ نَفَعَ اللهُ بِكَ الأُمَّةَ بِمَا تَرَكْتَهُ مِنْ كُنُوزٍ عِلْمِيَّةٍ لاَ نَزَالُ نَتَعَلَّمُ وَنَسْتَفِيدُ مِنْهَا.. وَلاَ نَزَالُ نَفْخَرُ بِكُمْ، أَنْتُمُ الْعُلَمَاءُ الْمُسْلِمُونَ الَّذِينَ عَلَّمْتُمُ الْعَالَمَ.

قَالَ أَمِيرُ النُّورِ: شُكْرًا لَكُمْ أَيُّهَا الأَصْدِقَاءُ عَلَى هَذِهِ الزِّيَارَةِ، وَالَّتِي أَتَمَنَّى أَنْ تَتَكَرَّرَ مَرَّاتٍ وَمَرَّاتٍ.. فَكَمْ يُسْعِدُنِي أَنْ أَجِدَ مِنْ أَحْفَادِي مَنْ يَهْتَمُّ بِالْقِرَاءَةِ وَيَبْحَثُ عَنِ الْعِلْمِ النَّافِعِ!



وَفِي لَحَظَاتٍ خَاطِفَةٍ انْطَلَقَ ضَوْءٌ سَاطِعٌ مِنْ أَعْمَاقِ الْكِتَابِ، وَإِذَا بِالأَصْدِقَاءِ يَخْرُجُونَ، وَحَبَّاتُ الْعَرَقِ تَلْمَعُ عَلَى وُجُوهِهِمْ.. تَبَادَلُوا النَّظَرَاتِ ثُمَّ قَالُوا: هَذَا رَائِعٌ حَقًّا.. يَا لَهَا مِنْ رِحْلَةٍ مُمْتِعَةٍ!!

قَالَ أَحْمَدُ: وَرِحْلَةٌ نَافِعَةٌ أَيْضًا.. عَلَيْنَا أَنْ نَسْتَفِيدَ مِنْ هَذِهِ الرِّحْلَةِ بِقَدْرِ مَا نَسْتَطِيعُ.

قَالَ الْجَمِيعُ: نَعَمْ يَا أَحْمَدُ، نُحَدِّدُ الْهَدَفَ، ثُمَّ نَعْمَلُ عَلَى تَحْقِيقِهِ بِالطُّرُقِ الْعِلْمِيَّةِ الصَّحِيحَةِ..ابْتَسَمَ أَحْمَدُ مُدَاعِبًا: تَمَامًا كَمَا قَالَ جَدُّكُمُ ابْنُ الْهَيْثَمِ.